لم يُجبْ «ماني». فقد كان سابحاً وهو مُغْمَضُ العينيْن وسط ذكرياته باحثاً عن أمارة، عن بشير كان من الممكن أن يُنبئه بهذا المشهد الغريب الذي يحياه. فلم يكن بإمكانه قطّ أن يتخيّل أنّ الأشياء ستحدث على هذا النحو.

ثم فتح عينيه على مهل وألقى راحة يده اليمنى فوق رأس أبيه الجاثي. ومن غير أن يدري فقد أعاد بذلك، ومحا بشكل من الأشكال، تلك الحركة التي كان «سيتابي» قد سيطر بها فيما مضى على «باتيغ» في حديقة معبد «نَبو».

في الأيام التالية كان «مالكوس» يتذمّر داخل مُحترفاته ويدور على نفسه لاعناً مرتبكاً عاجزاً عن أداء أدنى عمل مُفيد. فلقد كان «ماني» قد فتنه ولا ريب على الدوام، بيد أنه لم يسبق قطّ أن بدا له مضلّلاً إلى هذا الحدّ، مستحيلاً إدراكه إلى هذا الحدّ. فأحياناً تصدر عنه حركات معلّم محاط بالتلاميذ، وبعدها بلحظة حركات طفل؛ وكان «مالكوس» يُعجب به أحياناً، وبعدها بلحظة كان يرغب فقط في حمايته وكأنّه أخ أصغر.

وكان «الصُّورِيّ» يجترّ في ذهنه على الأخصّ أحداث البارحة: لقد أبصرت «كنيسةً» غريبةً النورَ في منزله بالذات، وقد وُلدت من ولاء مخالف للطبيعة من أبٍ لابنه. فأيّ دور يُسند إليه هو «مالكوس الصُّورِيّ» المكرَّس تاجراً، المتشيِّع التائب الذي فرّ من «الكنائس» و«الجماعات»؟

لقد كان في علاقاته بصديقه سوء تفاهم لم يكن قد حسب حتى الآن ضخامته وانعكاساته. فقد غادرا كلاهما بستان النخيل التابع لـ «أصحاب الملابس البيضاء»، غير أن دوافعهما كانت متباينة جدّاً. فهو نفسه قد عرف يقيناً على الدوام ما يريد من الحياة: الثروة والمرأة الحبيبة والمنزل المؤاتي بانتظار بناء قصر... و«ماني»؟ ما الذي حلم به وهو يغادر الطائفة؟ بدين جديد؟ لقد كانت تعتلج في نفسه بالتأكيد تلك الرغبة في التبشير، وتلك التلميحات التي أصبحت كثيرة التردّد الآن بنداء سماوي... وإذا كان الأمر كذلك فكيف يُفسَّر أن يكون «مالكوس» قد سمع من فمه، في المساء الذي جاء فيه «باتيغ»